مؤلفات ابن حزم الأندلسي

أ.حفيظة طالب*

من المسلَم به أنّ دراسة أية شخصية عامة أو خاصة لابد للدارس أن يطّلع على الظروف الاجتماعية والسياسية والعلمية والاقتصادية التي عايشتها فإنّ لتلك الظروف مؤثرات في تكوين الشخصية، من أجل ذلك لابد من إلقاء نظرة على عصر ابن حزم لاستخلاص تلك المؤثرات.

المطلب الأول:عصر ابن حزم:

ربما اجمع مؤرخو الحضارة على أنّ القرن الهجري الرابع، كان هو عصر النهضة الإسلامية بما شهد من تطورات وتحولات بلغت بها الحضارة والعلوم والفنون شأوها و ذروتها .

ولكن من ذا الذي ينكر أنّ هذا العصر الذهبي قد شهد رغم ذلك أخطر ألوان التفسخ متمثلا في اقتسام العالم الإسلامي تحت ثلاث خلافات إسلامية قامت جميعا في عصر واحد. وكل منها كان يحاول إثبات جدارته بالخلافة الإسلامية[1]

أ–الحياة السياسية:

شهد ابن حزم عن قرب شديد أحداث عصره بحكم نشأته في بيت له في سياسة بلده دور مؤثر، فقد عاش في الفترة الواقعة بين 384هـ –456هـ وقد مرت بقرطبة مدينة ابن حزم الأحداث التالية:

1–الدولة الأموية وعصر الخلافة المروانية(316هـ–366هـ):

2–الدولة العامرية عصر الحجابة(366هـ–399هـ)

3–الفتنة البربرية(399هـ–422هـ)تاريخ انتهاء الخلافة الأندلسية إلى الأبد

4–دول ملوك الطوائف(بنوجهور وبنو عباد حتى وفاة ابن حزم456هـ)[2]

غير أنّ صاحب كتاب المنهج الحديثي يرى أنّ عصر ابن حزم ينقسم إلى زمنين:

ما قبل الفتنة البربرية أي من سنة 384هـ على 399هـ وما بعد الفتنة أي ابتداء من سنة 399هـ على سنة456هـ.

* - قسم العلوم الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران

فالقسم الأول:

ظهر في سماء الأندلس المتطاحنة بالحروب الأهلية بطل راح يذلل الصعاب وقضى على العداء في الداخل والخارج، كان محبا للعلوم ناشرا للثقافة والمعرفة هو : عبد الرحمن بن محمد الأمير الذي استطاع أن يوحد الأندلس وتلقب بالناصر لدين الله وصارت جميع أقطار الأندلس في قبضته إلى أن توفي سنة 350هـ، تخلفه ابنه العظيم: الحكم بن عبد الرحمن وتلقب بالمستنصر باللّه وكان كأبيه جامعا للعلوم محبا لها فكانت مكتبته مضربا للأمثال ومحطا لتقدير الرجال إلى أن توفي سنة366هـ[3]

غير انه ارتكب خطأ فادحا قبل وفاته وذلك حين عهد في الخلافة إلى ابنه الطفل الملقب بهشام المؤيد الذي له عشرة أعوام فقامت على رعايته أمه "صبح" التي نجح محمد بن أبي عامر[4] في استمالتها إليه بمهارته وذكائه وقد استطاع أن يتسنم ذروة الحكم الحقيقي للأندلس هو وأسرته من بعد فترة تزيد على ثلاثة عقود بحيث طغى نفوذ العامرية في هذه الفترة على الخلافة الأموية وإن كان الحكم باسمها. وقد نجح ابن أبي عامر في توفير الأمن للرعية كما أعاد للأندلس هيبتها إذ قام بخمسين غزوة طوال حكمه البالغ خمسا وعشرين وقيل سبعا وعشرين لم يهزم فيها قط[5]. وبوفاة ابن أبي عامر سنة392هـ وابنه عبد الملك الذي لم يدم حكمه أكثر من سبع سنوات وكان كأبيه كفاية ومقدرة.

تغيرت الدولة العامرية التي انتهت سنة 399هـ والملاحظ أنّ هذه الفترة تعتبر من أحسن فترات الأندلس استقرارا سياسيا عامة، وخاصة عاصمتها قرطبة موطن ابن حزم ومكان نشأته، حيث كان أبوه وزيرا للمنصور وبقي وزيرا لخلفه وولده عبد الملك المنصور الملقب بالمظفر الذي سار سيرة أبيه ولكن الأجل لم يمهله فتوفي سنة398هـ/1000م فصار مكانه أخوه عبد الرحمن بن الناصر بن المنصور الشهير بعبد الرحمن (شنجول)لكنه خلط وانهمك في الشرب والزندقة وحكى عنه من الطعن في الدين قولا وفعلا،كان عديم الحكمة حيث بدأت الفتن تطل بوجهها الكالح فبعد قتله سنة 399هـ وخلع هشام المؤيد وسجنه، انقرضت الدولة العامرية وبدأ عصر الفتنة وعصر الطوائف[6].

القسم الثاني:

وهو عصر عاشت فيه قرطبة فتنا متتالية ويكفي للدلالة على ما تميزت به هذه الفترة من قلق واضطراب كبيرين أنه تقلب على المر فيها عشرة حكام تولى أربعة منهم الحكم مرتين،بعضهم من الأمويين والآخرين من بني حمود الذين استولوا على السلطة في قرطبة سنة406هـ وأخذوا يعبثون بالحكم فيولون ويعزلون كما يشاءون ويطلقون من الألقاب ما يحلو لهم، وبديهي أن تولي بعض الخلفاء الحكم أكثر من مرة كان بتأثير الفتن الدائرة وأسلوب الانقلابات الدموية[7].

ويصف ابن حزم تلك الأزمات التي تعاقبت على الأندلس بعد سقوط الدولة العامرية وبروز ملوك الطوائف بأنها:"فتنة سوء أهلكت الأديان إلاّ من وقى اللّه ...اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل المماليك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم وبعمارة قصور يتركونها عمّا قريب، عن عمارة شريعتهم اللازمة في معادهم ودار قرارهم وبجمع أموال ربما كانت سببا إلى انقراض أعمارهم وعونا لأعدائهم عليهم عن حياطة ملتهم التي عزوا بها في عاجلتهم و بها يرجون الفوز في آجلتهم"[8].

فكل هذه الاضطرابات والأحداث السياسية والاجتماعية لها آثارها البليغة ومضارها في نفس ابن حزم الذي اكتسب بسببها كلّ هذه الحدة والعنف والصرامة.

ب–الحياة الاقتصادية:

الحالة الاقتصادية ترتبط بالحالة السياسية لكل بلد، فمع الاستقرار واستتاب الأمن يتمكن الناس من الإنتاج في الحقول والمصانع والمتاجر وغيرها من المجالات الاقتصادية[9].

أما في حالات الفزع والتقلبات السياسية والحروب المتواصلة التي تشبه معارك قطاع الطريق فإنّ الحالة الاقتصادية تصل إلى درجة من السوء تتناسب مع المستوى السيء للحالة السياسية ففي عصر بني عامر كان الثراء غالبا على الحياة القرطبية في طبقات المجتمع المختلفة، أما خلال الفتنة وفي عهد ملوك الطوائف ونتيجة للتدهور السياسي فإنّ الحالة الاقتصادية بالنسبة لمجموع الشعب كانت بالغة السوء[10].

ج–الحياة الاجتماعية:

اختلف المجتمع الأندلسي في عصر ابن حزم باختلاف في الأجناس وتمازج الحضارات فالطوائف متعددة جنسيا ما بين عرب وبربر وصقالبة وأسبان، وعندما كانت الدولة في قوتها، تملك زمام الأمور وتمشي بالعدل الذي أقره الإسلام،كانت الطائفة الجنسية خامدة لكن بظهور الفتن، ظهرت المظالم والاستغلال السياسي، فأصبح هذا التعدد الجنسي بلاء ومدّ الأندلس وأحالها إلى ارض صراع وفوضى، فقد كان للإسلام فضل في تمتع الطوائف غير الإسلامية بتسامح كبير، فوجدت بين تلك الطوائف الجنسية والدينية ظاهرة الاختلاط والاتصال عن طريق التصاهر وتبادل المنافع التجارية وغيرها في عهود السلم[11].

أما اللغة فكانت العربية الفصحى في المجال الثقافي كلية وانحسرت اللاتنية في نظام الكنيسة بين رجال الدين فكانت توجهات رجال الدين وعلى وجه الخصوص رجال الكنيسة في اشبيلية نحو اقتراح ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية ليتمكن نصارى الأندلس من الارتباط بدينهم[12].

د–الحياة العلمية:

عندما بدأت تظهر بوادر النهضة العلمية في الأندلس كانت قد سبقتها نهضة أدبية في بلاد المشرق العربي، شجعت عليها واحتضنتها الخلافة العباسية في بغداد، وذلك باستقطاب علماء ومترجمين قاموا بترجمة نفائس الكتب الأدبية والفلسفية والعلمية من اليونانية والفارسية والهندية وغيرها، ثم بتدريس هذه المواد المترجمة في مختلف المعاهد التي أنشئت في بغداد وغيرها[13].

وبالرغم من العداء المستحكم بين أموي الأندلس وعباسي بغداد فإنّ العهد الأموي مشى مع الركب الحضاري الذي كان قد قطع شوطا كبيرا في مسيرته ببغداد، والتي وصفها ابن حزم قائلا:"وهذه بغداد حاضرة الدنيا، ومعدن كل فضيلة والمحلة التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف، والتدقيق في تعريف العلوم، ورقة الأخلاق والنباهة والذكاء وحدة الأفكار ونفاذ الخواطر[14].

وأول من أسهم في إرساء قواعد الانطلاقة العلمية في الأندلس عبد الرحمن الداخل، عندما بدأ في إنشاء جامع قرطبة العظيم، الذي انشأ للعبادة والعلم، شانها في ذلك شأن معظم الجوامع التي ابتناها المسلمون في الأندلس، حيث كان العلماء والفقهاء والأدباء يعقدون فيها لطلاب المعرفة حلقات تدرس فيها مختلف المواضيع[15].

وما إن تولى الحكم الثاني الحكم حتى بدأ يجمع نفائس الكتب ويعمل على استنساخها وعلى إنشاء مكتبة قرطبة، التي أصبحت في عهده تضارع مكتبة دار الحكمة ببغداد، كما أخذ يشجع العلماء وطلاب العلم على انتهال المعرفة ويغدق عليهم الأموال لحفزهم على الاستزادة[16].

فألف الأندلسيون في العلوم والفنون والنثر والشعر وقلدوا المشارقة في منهج تأليفهم ولم ينصرفوا إلاّ عن بابين من أبواب العلوم وهما الفلسفة والتنجيم اللذان لهما حظ عظيم عند خواصهم، ولا يتظاهرون بهما خوف العامة فإنه كلما قيل:إنّ إنسانا يقرأ الفلسفة أو التنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه[17].

المطلب الثاني:اسمه، نسبه،مولده ونشأته

أ–اسمه ونسبه:

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل ثم اليزيدي مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي[18].

فكان جده يزيد مولى للأمير يزيد أخي معاوية وكان جده خلف بن معدان هو أول من دخل الأندلس في صحبة ملك الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل [19] عام 138هـ والبعض الآخر يرى أنّ دخوله كان مع جيش موسى بن نصير عام93هـ [20].

وأيا كان موعد دخول "خلف بن معدان" فالمهم أنّ هذه الرواية تؤكد ثلاثة أمور:

–قدم عهد الأسرة بالإسلام

–أصلها الفارسي

–وولاؤها الأموي ولكن البعض استكثر عليه أن يكون عربيا وأرجعه إلى أصول مسيحية، وكأنّ الحضارة الإسلامية عاجزة على إنجاب عباقرة مثله[21].

ب–مولده ونشأته:

ولد في آخر يوم من رمضان سنة 384هـ بمدينة قرطبة الأندلسية وقد ذكر ابن حزم تاريخ ومكان ميلاده بنفسه حيث قال:"ولدت بقرطبة في الجانب الشرقي من ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الأربعاء، آخر يوم من شهر رمضان العظيم.

كان والد ابن حزم وهو أبو عمر أحمد معروفا برجاحة العقل وحسن التدبير واستطاع أن ينال ثروة عاش فيها في سعة وتمتع بها أولاده من بعده[22].

تزوج ابن حزم في أواخر أيامه، فأنجب أولادا عديدين منهم ابنه الفضل أبو رافع، وأبو سليمان المصعب، وأبو أسامة يعقوب، وهؤلاء الثلاثة عملوا على نشر أفكار أبيهم إذ كانوا من الأدباء والعلماء وكان أشهرهم أبو الفضل[23].

مواهبه الشخصية وصفاته:

اجتمعت في ابن حزم مواهب وسجايا وأخلاق مميزة من أهمها تميزه بحافظة قوية مستوعبة وبديهة سريعة حاضرة تسعفه بالمعلومات الشاردة في وقت الحاجة إليها وقوة ملاحظة وقدرة استدلالية هائلة.

فقد حفظ الحديث الشريف ورتب مصادره كما كان حافظا لسير الأولين وكان هذا كافيا لأن يكون راوية أمينا ومحققا نزيها ومؤرخا واسع الأفق وكذلك أوتي من الصفات الصدق والضبط وعمقا في التفكير وغوصا على الحقائق وحدة في الذكاء لا يكتفي من الظواهر حتى يتعرف ما وراءها، ولا يترك المسببات حتى يعرف أسبابها فهو لا يكتفي بالاستقراء والإحصاء حتى يعرف كل مسألة ليعرف أسرارها و لا يكتفي بمعرفة الوقائع حتى يعرف بواعثها والدافع إليها فمثلا في رسالة "طوق الحمامة" يرد الظواهر إلى بواعثها النفسية محاولا في ذلك الكشف عن النواميس النفسية التي تسير الإنسان في عواطفه نحو الجمال وكذلك يوضح في رسالته "مداواة النفوس" علاجا نفسيا لعيوب الأخلاق.[24]

مؤلفاته:

لقد تم حصر كتب ابن حزم المطبوعة، وكتبه التي لا تزال مخطوطة، وكتبه المفقودة وكتبا مات ولم يتمها وكتبا لا يوجد إلاّ بعضها وكتبا وعد بتأليفها ومات قبل أن يؤلفها:

وفيما يلي قائمة حصرية بأسماء مؤلفات ابن حزم الأندلسي الذي توفي في سنة 456هـ عن عمر يناهز اثنين وسبعين عاما:الرمز (غير) غير مطبوع والرمز ط يعني مطبوع:

1-الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض عنها .غير

2-إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقاليد والتعليل.ط.

3-الاتصال.غير.

4-إجازته للحسين بن عبد الرحيم.غير.

5-إجازته لتلميذه شريح.غير.

6-الإجماع .ط.

7-الإجماع ومسائله على أبواب الفقه.غير.

8-أجوبة على صحيح البخاري.غير.

9-الأحكام في أصول الأحكام.ط.

10-اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة.غير.

11-اختلاف الفقهاء الخمسة:مالك وأبي حنيفة والشافعي،وأحمد، وداود.غير.

12-الأخلاق والسير.ط.

13-أخلاق النفس.غير.

14-الأدوية المفردة.غير.

15-الاستجلاب.غير.

16-الاستقصاء.غير.

17-أسماء الخلفاء والولاة كر مددهم إلى زماننا.ط.

18-أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد من العدد.ط.

19-أسماء الله الحسنى.غير.

20-أسواق العرب.غير.

21-أصحاب الفتيا من الصحابة.ط.

22-أصول الفقه.ط.

23-الصول والفروع.ط.

24-إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بايديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل.ط.

25-الإظهار لما شنع به على الظاهرية

26-الاعتقاد.غير.

27-الإعراب عن الحيرة والالتباس الواقعين في مذهب أهل الرأي والقياس.غير.

28-ألم الموت وإبطاله.ط.

29-رسالة الألوان.ط.

30-رسالة الإمامة.ط.

31-الإملاء في شرح الموطأ.غير.

32-الإمامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها.غير.

33-الإملاء في قواعد الفقه.غير.

34-أمهات الخلفاء.ط.

35-الإنصاف.غير.

36-أنّ القرآن ليس من نوع بلاغة الناس.غير.

37-أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس.ط.

38-أوهام الصحيحين.غير.

39-الإيصال إلى فهم كتاب الخصال.غير.

40-الإيمان في الرد على عطاف بن دوناس القيرواني.غير.

41-بلغة الحكيم.غير.

42-البلقاء في الرد على عبد الحق بن محمد الصقلي.غير.

43-البيان عن حقيقة الإيمان.ط.

44-بيان غلط عثمان بن سعيد العور في المسند والمرسل.غير.

45-بيان الفصاحة و البلاغة.غير.

46-تارك الصلاة عمدا حتى يخرج وقتها لا قضاء عليه فيما قد خرج من وقته.غير.

47-التأكيد.غير.

48-التبيين في هل علم المصطفى صلى الله عليه وسلم أعيان المنافقين.غير.

49-التحقيق في نقد كتاب العلم الإلهي لمحمد بن زكريا الرازي.غير.

50-ترتيب سؤالات عثمان الدارمي لابن معين.غير.

51-الترشيد في الرد على كتاب الفريد لابن الراوندي في اعتراضه على النبوات.غير.

52-تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر.غير.

53-تسمية شيوخ مالك.غير.

54-التصفح في الفقه.غير.

55-التعقب على الإفليلي في شرحه لديوان المتنبي.غير.

56-في تفسير الجلالين للقرآن العظيم.ط.

57-التقريب لحد المنطق.ط.

58-التلخيص لوجوه التخليص.ط.

وصلت الكتب لغاية 161 مؤلف بين مطبوع ومفقود ومخطوط.

-في العقائد 22 كتاب

-الأصول 19 كتاب

-الفقه 13كتاب

-الفقه المقارن 1 كتاب

-المنطق3 كتب

-فلسفة العلوم 1 كتاب

-الطب 8 كتب

-علم النفس 1كتاب

-الأخلاق 7 كتب

-السياسة 3 كتب

-قرآءآت 2 كتابان

-التفسير 4 كتب

-الحديث كتاب16

-السيرة 2 كتابان

-التاريخ 19 كتاب

-أنساب 2 كتابان

-أدب 6 كتب

-ردود 13 كتاب

-إسلاميات 1 كتاب

-غير المحدد13 كتاب

المجموع 161. مؤلف

تدل هذه المؤلفات على مقدرة عقلية عجيبة في الفهم الدقيق الشامل، وفي الاستنباط والاستنتاج وفي نقد آراء الآخرين ومجادلتهم ومناظرتهم وهي خاصة عقلية لا تفارقه، فلا نكاد نجده مرة نائم العقل أو مسترخي الذهن أو مستسلما للنقل فهو ليس جماعة من هنا ومن هنا، يحشد ما يحفظ ويقرأ وغنما هو حاضر العقل يقظ الذهن ناقد بصير فهو —بهذا-مرجع من المراجع العظيمة في تعلم الأسلوب العلمي في التفكير والتقدير ووزن الأمور وتربية الملكة النقدية [25].

الهوامش:

1-سيف الدين الكاتب،الإمام أبو محمد بن حزم،مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر،ط1403هـ -1982م،ص5،.6

2-ابن حزم،نقد العقل الأصولي، ص20

3-المصدر نفسه،ص20

5-أنظر ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري،19،20و ابو زهرة ، ابن حزم حياته وعصره،ص93،100

6- طه ابن علي بو سريح ، المنهج الحديثي عند افمام ابن حزم الأندلسي ص21

7-أنظر عنان، دول الطوائف،/20،21

8- طه ابن علي بو سريح،المنهج الحديثي، عند الإمام ابن حزم الأندلسي ص21

9-انظر عويس، ابن حزم،ص28

10-ابن حزم ، رسالة التلخيص ص173-.174

11-أبو زهرة، ابن حزم ص.101

12-وديع واصف مصطفى، ابن حزم، ص44

13-المرجع نفسه،ص46

14-أنظر، ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها،ص.176

15-وديع واصف، ابن حزم ص47

16-المرجع نفسه ص47

17-انظر ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس ص185،.186

18-الذهبي، تذكرة الحفاظ ج3ص1146 و الحميدي،جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والترجمة ط لسنة1966 ص.308

19- طه ابن علي بو سريح المنهج الحديثي عند الإمام ابن حزم الأندلسي، دار ابن حزم ص28

20-حسان محمود حسان ، ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه وفكره التربوي ص.33

21-المرجع نفسه.ص33

22-المقري، نفح الطيب،ج6 ص216-217

23-شرارة،ابن حزم رائد الفكر العلمي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ص50،.51

24-محمد هشام النعسان، ابن حزم الأندلسي ومؤلفاته، الموقع،landcivi a landcivi-com